المأساة الوطنية في الرواية الجزائرية : قراءة في نماذج من الرواية الجزائرية الجديدة

د/ عبد الحميد هيمة
كليـــة الآداب و اللغـــــــات
جامعة ورقلـــــة

الملخص :

عرفت الرواية الجزائرية – نتيجة لظاهرة الإرهاب – تحولات هامة على مستوى المضمون، والبناء الفني، فنقلت لنا مظاهر العنف والإرهاب الأعمى الذي حصد أرواح آلاف الجزائريين، كما عبرت عن المأساة الوطنية بصورة فجائعية، وبأدوات فنية متفاوتة من حيث النضج والتطور الفني.

وفي هذا البحث سنحاول الكشف عن تجليات المأساة الوطنية في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر من خلال روايتين وهما رواية " الشمعة والدهاليز، للطاهر وطار"، و رواية " وسيدة المقام " لواسيني الأعرج.

Abstract :

The Algerian novel has known considerable changes both at the level of content and artistic structure due to the phenomenon of terrorism. It has brought aspects of violence and blind terrorism that led to the loss of thousands of lives among Algerians. It has, morever, expressed grievously and using different aritistic tools the national tragedy.

The present study is an attempt to inquire into the national tragedy in the Algerian modern novelist discourse through three novels : 'The Candle and the Corridors' by Tahar Wattar,' The Lady of the Situation' by Wassini Laradj.

تمهيـــــــد:

تتناول هذه المداخلة تجليات المأساة الوطنية في الرواية الجزائرية المعاصرة من خلال روايتين عالجتا موضوع العنف الذي عاشته الجزائر في التسعينيات من القرن الماضي، وهما روايتي " الشمعة والدهاليز " للطاهر وطار، و " سيدة المقام " لوسيني الأعرج، وتشترك هاتين الروايتين في أن مرجعيتها واحدة، وهي الأزمة الجزائرية أو ما اصطلح على تسميته بالعشرية السوداء، فقد كانت أحداث الأزمة الجزائرية في التسعينيات هي المادة الدسمة لعشرات الأعمال الروائية التي صدرت تباعا خاصة منذ سنة 1990 م وحاولت تفكيك الأزمة الجزائرية، وتحليل مختلف أبعادها السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية. وبذلك مثلت منعرجا هاما في الكتابة الروائية في الجزائر في العصر الحديث .

وقد تباينت هذه الأعمال الإبداعية من حيث الرؤية الفكرية، والأدوات الفنية إلا أن مرجعيتها واحدة .

والحق أن الكتابة عن موضوع المأساة الوطنية في الرواية الجزائرية مغامرة فيها الكثير من الجرأة لما يشوب الموضوع من غموض وعدم وضوح الرؤية، ولذلك فعلى الرغم مما كتب حول هذا الموضوع فإنه ما زال بحاجة إلى القراءة الموضوعية المتأنية والعميقة. خاصة إذا علمنا أن أغلب ما قدم حول موضوع المأساة الوطنية كتابات صحفية يشوبها الكثير من الاضطراب، وتغلب عليها السطحية، ويظهر ذلك من خلال تبني بعض هذه الكتابات للمصطلحات والمفاهيم الغربية دون تمحيص نقدي، أو قراءة علمية متـــأنية، كما وقعت بعض هذه القراءات في أسر التوجهات السياسية الضيقة مما أفقدها لعنصر الموضوعية المطلوبة في مثل هذه الموضوعات .

وإذن فإن من الصعوبة بمكان الكتابة عن موضوع المأساة الوطنية للأسباب التي ذكرنا سالفا، ويضاف إليها :

1_ صعوبة مواجهة الذات على مستوى الممارسة النقدية، أي صعوبة أن نكون القارئ والمقروء، الملاحظ والملاحظ في الوقت نفسه

2 _ أن جل المتابعات التي تناولت المأساة الوطنية لم ترتق إلى مساءلة الظاهرة في مجملها وإنما كانت متابعة جزئية خاصة بنص واحد أو نصين في أحسن الظروف

3 _ التهمة التي ألصقت بالأعمال التي عالجت الأزمة حيث أطلق عليها اسم الأدب الاستعجالي (1) الذي يشبه الروبرتاج الصحفي، مما أدى إلى تعميم هذا الحكم على كل تلك الأعمال والنظر إليها نظرة سلبية في حين أن الأدب الاستعجالي ليس عيبا في ذاته، ولكن العيب في الأدوات المستعملة في الكتابة.

ترى الباحثة الكويتية سعاد العنزي صاحبة كتاب صورة العنف السياسي في الرواية الجزائرية " أن ثمة نصوصا روائية مغرقة في سرد الواقع والمعاش بسرد تقريري يذكرنا بسرد التاريخ، وعلم الاجتماع، أو الكتابة الصحفية التي تسرد الحديث مباشرة من دون استلهام عناصر السرد الروائي ...ناهيك عن عدم توافر لغة سردية شعرية ...لكن هذا لا يلغي جودة بعض النصوص الروائية " (2)...ومعنى هذا أن هناك أعمالا إبداعية كثيرة استطاعت أن ترصد الأزمة الجزائرية بأدوات فنية راقية كما سنرى في مدونة هذا البحث.

ولنبدأ برواية " **الشمعة والدهاليز**" **للطاهر وطار**، والتي صدرت سنة 1995، عن منشورات التبيين (الجاحظية) سلسلة الإبداع الأدبي، وأحداث الرواية تجري قبل انتخابات 1992 ، ولذلك فقد انصب اهتمام الطاهر وطار في هذه الرواية على كشف أسباب الأزمة التي عصفت بالجزائر بعد توقيف المسار الانتخابي دون التركيز على الأحداث الدامية التي عاشتها الجزائر بعد ذلك وإن كان قد أشار إلى بعضها حيث نلحظ أن تلك الأحداث قد فرضت نفسها على الكاتب ربما بسبب فضاعتها وبالتالي فقد تركت بصماتها في الرواية، على الرغم من أن الكاتب قد عبر في التقديم الذي استهل به الرواية بأنه عاجز عن متابعة ما يجري في الجزائر : ها أنني لا أستطيع لحاق ما يجري في الجزائر لا لشيئ آخر، إلا لأنني جزء من هذا التاريخ أؤثر فيه وأتأثر به، وأبذل كل عمري محاولا فهمه "، هذه الرواية إذن تسعى إلى اكتشاف أسباب الأزمة

وقد أهداها إلى روح الشاعر والباحث يوسف سبتي الذي يقول عنه الكاتب : " إنه كان يتنبأ بكل ما يجري قبل حدوثه, وهو كذلك الشخصية التي استلهمها الكاتب في عمله الروائي. حيث إن بطل الرواية هو شاعر وأستاذ جامعي بأحد المعاهد بالحراش بالعاصمة، يتيه في دهاليز كثيرة، ويقع في الحيرة بسبب ما كان يراه في واقعه من تناقضات

الرواية تتألف من فصلين " فصل دهليز الدهاليز" و"فصل الشمعة" الفصل الأول يتكون من ستة مقاطع, والثاني يتكون من ثلاثة عشر مقطعا، وأول ما يستوقفنا في هذه الرواية : العنوان الرئيس الذي يتألف من لفظتين معطوف أحدهما على الآخر، وهما : " الشمعة _ الدهاليز "

_ الشمعة : وهي لفظة مفردة تحمل دلالة النور والإضاءة والهداية

_ الدهاليز : جاءت بصيغة الجمع، وهي تحمل دلالة الظلمة والتيه و الظلال

" فقارئ الرواية يدخل دهاليز كثيرة حقا، حتى أنه لا يخرج من دهليز إلا ليدخل في آخر، وبقدر ما تتعدد السراديب تتعدد معها التساؤلات المحيرة المقلقة، وهي تارة تتخذ أبعادا نفسية اجتماعية، وتارة تتخذ أبعادا تاريخية سياسية "(3) وعليه فإن صيغة الجمع في (الدهاليز) جاءت لتعبر عن تعقد الأزمة الجزائرية، وطغيان عناصر الشر فيها ممثلة في الدهاليز على عناصر الخير ممثلة في الشمعة.

إذن " ثمة تطابق فني وفكري بين العنوان الروائي والمتن الروائي الذي وضعه المؤلف الطاهر وطار، فالشمعة هي العنصر الوضاء الذي ينير الدرب للإنسان، ويزيح عنه كابوس الظلام ويبعث التفاؤل في نفسية المتلقي... أما الدهليز فهو كلمة فارسية وتعني المسلك الضيق الطويل المظلم (جمع دهاليز)، وقد استخدمه الروائي للتعبير عن شدة الظلام وكثرة الدروب الملتوية وبعث الرهبة والخوف والرعب في نفسية الإنسان " (4)

وقد صدر الروائي عمله بمقدمة وقطعة قصيرة ذات نفس شعري صوفي عنوانها " طاسين الواحد والصفر" يقول فيها : يوسف السبتي (المهدى إليه) أستاذ

جامعي, باحث وشاعر, واحد المؤسسين للجاحظية واحد أعضائها النشيطين اغتيل في منزله، عرفته في نهاية الثمانينات في مهرجان شعري أقيم بمدينة عين الترك (ولاية وهران), عندما جلست إليه وجدت نفسي أمام شخص مختلف يطرح أسئلة أكثر مما يقدم إجابات, زاهد في كل شيء هكذا بدأ لي. في تلك الجلسة وجدت فيه المثقف القلق. ما إن تفاتحه في موضوع حتى يزج به في مختبر المسائلة والمراجعة حول موقفه من الحركة الفرانكفونية قال لي : إن ما يؤرقني هو أنني لم أتوصل بشكل كاف إلى معرفة الميكانيزمات التي تحرك هذا التيار." (5)

أما الرواية فتتناول الأحداث التي عاشتها الجزائر في التسعينيات من خلال شخصية الشاعر الأستاذ بمعهد الحراش وعمار بن ياسر أحد قادة الحركة الاسلامية الذي يسعى إلى تجنيد الشاعر ولكنه لا يفلح، ثم يلتقي الشاعر بالخيزرانة التي تصبح فارسة أحلامه، وتنشأ بينهما علاقة تتطور إلى أن تتجه اتجاها روحيا، فتغدو أشبه بالشمعة المضيئة وسط دهاليز الواقع المظلمة، ويبقى الشاعر وحيدا في بيته يحيا لوطنه وكتبه إلى أن تقتحم مجموعة مسلحة بيته وتوجه إليه عددا من التهم المتناقضة...، ثم تحكم عليه بالإعدام. والرواية بهذا الشكل لاتنسب العمليات الإرهابية إلى جهة واحدة، أي إلى الجماعات الإسلامية المتطرفة كما هو شائع لدى الكثير من الكتاب، وإنما ينسبها الكاتب إلى أطراف متعددة بعضها في السلطة، وبعضها الآخر خارج السلطة، من الجماعات المتطرفة، ومن المتآمرين على الجزائر أو ما يطلق عليهم اسم (حزب فرنسا) كل هؤلاء يوجه إليهم الكاتب سهام الإدانة والاتهام فيما حدث في الجزائر .

رواية سيدة المقام لوسيني الأعرج (مرثيات اليوم الحزين) : صدرت هذه الروايةأولا بألمانيا عن دار الجمل سنة 1996، ثم صدرت في الجزائر سنة 1997 عن مؤسسة الفنون المطبعية،هذا يعني أنها واكبت أحداث المأساة الوطنية بكل تفاصيلها بل إنها كتبت والأحداث الإرهابية على أشدها. يقول واسيني الأعرج : مخطوط هذه الرواية سافر كثيرا بين الجزائر وبيروت والمغرب وفرنسا قبل أن يستقر به المطاف في ألمانيا ويخرج في طبعته الأولى عن دار الجمل .

يعتبر نص سيدة المقام من نصوص المحنة التي صورت الواقع بكل تناقضاته، وهذا النص يلتقي مع نص الطاهر وطار في البحث عن جذور الأزمة والكشف عن نتائجها، " وتكاد تجمع هذه الروايات على إدانة السلطة في تغذية العنف من خلال سياستها الاقتصادية والتربوية والاجتماعية، ونتيجة فشل المشروع الاشتراكي مثلما ورد في الشمعة والدهاليز" (6)، وكذلك الحال لدى واسيني الأعرج حيث يحمل السلطة السياسية التي يطلق عليها اسم (بني كلبون) مسؤولية صعود التيار الإسلامي المتطرف (حراس النوايا)، والذين " يعدهم ورثة بني كلبون أولئك الذين حكموا البلاد والعباد ردحا من الزمن باسم الثورة والشرعية التاريخية، لكنهم في الواقع العملي تنكروا لدماء الشهداء، وعاثوا في البلاد فسادا فعبدوا بذلك الطريق لحراس النوايا ليأخذوها لقمة جاهزة " (7)

تدور أحداث رواية سيدة المقام حول قصة فتاة جزائرية، تدعى مريم أو (سيدة المقام) صديقة الراوي، التي تعمل راقصة باليه ، وعلى الرغم من معارضة شباب الحركة الاسلامية (حراس النوايا) تصر على إكمال غرضها الراقص " شهرزاد" تحت رعاية معلمتها الروسية (أناطوليا)، "سأرقصها ولو قطع رأسي. سأرقصها هنا. في هذه الأرض المحروقة بتصحرها المزمن – وصحتك يا مريم؟ شهرزاد أولا وصحتي بعدها " وكما توقع الراوي فقد حدث لها نزيف دموي بعد تقديم عرضها المسرحي، بسبب حادثة تعرضت لها قبل سنوات عندما أصابتها رصاصة طائشة واستقرت في رأسها ، وذلك أثناء مواجهات بين بعض المتظاهرين ورجال الأمن في أحداث أكتوبر **1988** مما أودى بحياتها " ماذا بقي منك الآن يا مريم؟ تنامين داخل برادات الموت، وحيدة بعد أن نزعت الرصاصة الطائشة روحك في ذلك المشفى البارد القاسي " **(8)** وبموت مريم تموت قيم الحب والفرحة في المدينة التي سيطرت عليها الجماعات المتطرفة (حراس النوايا) الذين يجوبون شوارع المدينة فارضين أوامرهم على الناس في ظل غياب مؤسسات السلطة الرسمية ، والقارئ للرواية يرى أن" الكاتب يدق ناقوس الخطر... فقد ماتت مريم، وأصبح مطر المدينة رذاذا من الدم، والجميل في الرواية أن الظاهرة الإرهابية لا تحضر في شكل خطاب سياسي فج، بل تحضر بوصفها جزءا من حركية المجتمع، تعيقه وتشده إلى الخلف، فالكاتب يهتم بنبش أعماق الظاهرة وتفكيك خيوطها

ليوقف القارئ على سيرورتها وطبيعتها، إن المدينة أصبحت تعيش تناقضا صارخا، فيها الجمال وفيها القبح وفيها الحب وفيها الحقد، فيها الموت، وفيها من يصنع الفرح، وفيها من يقتل الفرح " **(9)**وتنتهي الرواية بانتحار الراوي الذي أحب مريم، وكان مولعا ببهجتها وعنفوانها الطفولي ولكن بموتها لم يعد للحياة معنى ولم تعد للكتابة أيضا أي معنى، فيقرر الانتحار من على جسر(تلملي)، وبين يديه أوراق روايته التي كادت فصولها تنتهي " وداعا يا مدينتي الجميلة. فقد كنت أحبك كثيرا، أغادرك وقلبي ما يزال يحمل حنينك وخيبتك وأشواق الفرسان المهزومين بفرحة أمام جسد ساحر لأمرأة عاشقة. وداعا.. وداعا لسير الأبطال والعظماء والمنبوذين والحارات التي تنام قبل الأوان. وداعا للزرقة، للبحر الذي لم ينس موجه . " **(10)**

وما يلفت الانتباه في هاتين الروايتين على مستوى البناء الفني احتفاء الكاتبين (الطاهر وطار وواسيني الأعرج) بالمكان، الذي يتجاوز في النصين السابقين كونه مجرد إطار صامت تجري في الأحداث إلى عنصر رئيس في الرواية وحامل للكثير من الأبعاد والدلالات، ولذا يرى (غاستونباشلار) :" أن العمل الأدبي حين يفتقد المكانية فهو يفقد خصوصيته، وبالتالي أصالته " أما الشخصيات فقد حرص الكاتبان على رسم ملامح شخصيات روايتيهما مركزين على نماذج خاصة من الشخصيات كشخصية المثقف وشخصية الإرهابي كما سنرى لاحقا، ولنبدأ بالمكان ،

دلالة المكان في رواياتالمأساة الوطنية :

لم يكن اهتمامنا بالمكان في هاتين الروايتين اعتباطيا، وإنما لسبب جوهري وهو تضمن الروايتين حضورا قويا لعنصر المكان، فقد طغى المكان بشكل واضح متجاوزا وظيفته الأساسية المتمثلة في كونه إطارا أو ديكورا، فهو يغدو عنصرا مهما من عناصر تطور الحدث، ولم يعتمد السارد في نقل المكان على مجرد الوصف الفوتوغرافي الذي يعيد تشكيل الواقع حسب صورته المفترضة وإنما كان يقدم المكان من خلال نظرته الخاصة، وكأنه يسعى من وراء ذلك إلى إثارة المسكوت وخلخلة المألوف، وقد انعكس ذلك على أفعال الشخصيات، فحمل المكان بذلك قيما مختلفة وأحيانا متعاكسة مثلما هو الشأن بالنسبة لفضاء المدينة وهو المكان الرئيس في هذه الروايات، وهو يغدو" كيانا اجتماعيا يمثل خلاصة تجارب الإنسان ومجتمعه يحمل بعضا من سلوك ووعي ساكنيه،

لذا لم يبق في نظر الدارسين مجرد رقعة جغرافية فارغة، بل يمتلئ بالخبرة الإنسانية " (11).

ويوضح (غاستونباشلار) الفكرة بقوله : " إن المكان الذي ينجذب نحو الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تميز، إننا ننجذب نحوه لأنه يكثف الوجود " (12) من هنا كانت الأمكنة في المدونة تعيش، وتمارس أفعالا، وتعاني كما الشخصيات، شكلت مساحة للقتل، يحصد فيها الموت أرواح الأبرياء ... لكنها تشترك في كونها محكومة بفعل الحب، حولها إلى فضاءات للموت والقهر ، بعدما سيطر عليها، ومارس أشكاله المتعددة ضد ساكنيها، تفضحه اللغة وهي تقدم هذه الأمكنة بعيون الراوي والشخصيات بكل أبعادها، ليصنع منها السرد مسرحا للرعب، تعانيه الشخصية على الدوام " (13) حتى البيت يصبح مكانا للرعب لأنه لا يوفر لساكنه الأمن والسلام وهذا ما نجده مثلا في رواية الشمعة والدهاليز حيث يفاجئ البطل بأشخاص ملثمين يقتحمون بيته ويقيمون له محاكمة تنتهي بقتله : " لم يكن قد انتهى من ارتداء جبته بعد خروجه من الحمام، وينتهي من التساؤل حتى كانوا قد دخلوا، كسروا الباب، حطموه ودخلوا، كانوا سبعة ملثمين، فلا يبدو من وجوههم إلا أعينهم، في أياديهم رشاشات، وفي أحزمتهم سيوف. دفعوه إلى غرفة النوم، وأمروه بالوقوف، وجلسوا هم، وأعلنوا بصوت واحد محكمة " (14) .

وفي رواية (سيدة المقام) تحضر المدينة بشكل مكثف حتى أنه يمكن عدها رواية مدينة.

" إن حضور المدينة بهذه الكثافة يتخطى طبيعتها المكانية إلى مستوى دلالي يجعل منها فضاء للأزمة بكل أبعادها، يبدأ التحول باكتساب المكان شكلا جديدا، تستعيره الشخصيات من مدن أخرى، فتضيع المدينة زيها القديم، إلى درجة يشعر فيها البطل أنه غريب وحيد " (15)، يقول واسيني على لسان الراوي: أقول له بأني أشعر بالوحدة القاتلة في هذه المدينة التي تغيرت كثيرا، تركت ألبستها وارتدت ألبسة مستوردة لا علاقة لها بتاريخنا وحياتنا " (16)، ويقول في موضع آخر " لست أدري ما الذي جعلني أسترجع الكآبات القديمة، لست أدري ما الذي رماني في عمق المأساة القديمة. بنو كلبون صنعوا

الموت وجاءوا بهذا الوباء، عندما سرقوا استقلال هذا الوطن وملأوا المدن بالكذب والسرقات. ثم قالوا المدينة بدون ثقافة، سطحوها، ملأوا المكتبات بالمطبوعات التي تستعيد الخرافات والدروشات. قالوا ليعش الفراغ، أحسن من أن يفكروا في السلطة. ذات صباح فوجئوا بحراس النوايا يقفون عند أقدامهم ويدقون على أبوابهم الموصدة " (17) وهذا يدفع الراوي إلى هذا الشعور باليأس والإحباط، ثم الاستسلام للواقع المحتوم للمدينة، والذي يدفعه للانتحار برمي نفسه من أعلى الجسر وهذا التدمير للجسد هو في حقيقته تدمير للذات والوجدان والتاريخ، وهو يكشف عن تصدع عميق بين ماكانت عليه المدينة، وما آلت إليه من تخريب ودمار انعكس على أفعال، وسلوك الشخصيات التي أصبح يهيمن عليها فعل الموت ورائحة الدم .

إذن مع رواية المأساة الوطنية يتعرض المكان للتشويه،ويصبح فضاء للعنف والإرهاب، ويتعرض البيت إلى "الاغتصاب من أجل فعل القتل على يد أناس مجهولي الهوية، فقط ملثمين، يحولون المكان إلى فضاء للرعب، فتشعر الشخصيات أنها تعيش في بيت لا يعصمها من الرعب بفعل القتل، يجعلها مكشوفة أمام العنف، هنا تفتقد علاقة الألفة الإنسانية بالبيت، رمز الأمن والحماية، يتحول إلى مكان مستباح جراء الاقتحام فلا الأبواب الحديدية، ولا النوافذ المسيجة تصد الملثمين أصحاب الأحذية الثقيلة " (18)، و يغدو البيت في هذه الرواية رمزا للقتل والدمار، وهي رواية تحتفي بالموت أكثر من احتفائها بالحياة ، وكيف لها أن تحتفي بالحياة وهي لا تتحدث إلا عن القمع والقتل والتدمير، يظهر ذلك في طغيان صور الذبح وقطع الرؤوس والاغتيالات ومشاهد التعذيب والاغتصاب في هذه الروايات. " وفي مكان كهذا تضيع الشخصية، ولا تعرف طريقها وموقعها ... يلازم الشخصية الشعور العدمي الوجودي النزعة، وهو مؤشر لحال الضياع والمعاناة الشديدة من الوضع الذي انتهى إليه المكان الذي يتحول إلى مكان غريب مهدد بارد مصمت يزور الراوي في أحلام أصبحت كوابيسا متكررة تصل حد الهذيان، جراء ما يطرأ على المدينة من عنف، يطال الشخصيات المرعوبة والمكان المتهاوي " (19).

ـ دلالة الشخصيات :

1ـ شخصية المثقف الحداثي: إذا كانت المناهج السياقية التقليدية اهتمت بمضمون الشخصيات، نجد أن المناهج النسقية الحديثة انصرفت إلى الاهتمام ببناء الشخصية

ووظيفتها باعتبار الشخصية مكون سردي أساسي، فهي في المنهج السيميائي " بمثابة دليل له وجهان أحدهما دال (signifiant)، والآخر مدلول (signifie) وهي تتميز عن الدليل اللغوي اللساني من حيث أنها ليست جاهزة سلفا ولكنها تحول إلى دليل فقط ساعة بنائها في النص ..." (20) وتبعا لهذا التصور تصبح الشخصية علامة سيميائية فارغة، تكتسب دلالتها من خلال ما يقال عنها في عملية التلفظ.

ونبدأ بشخصية المثقف، وهي الشخصية الرئيسة التي ركزت عليها رواية المأساة الوطنية، وجعلت منها المحور الأساسي الذي تدور حوله الأحداث الروائية، حتى إننا يمكن أن نزعم أن " معظم روائيي التسعينيات يؤرخ لأزمة المثقف الذي أصبح هدفا لعمليات العنف "(21) على حد قول آمنة بلعلى، ففي رواية (الشمعة الدهاليز) نجد أن الشخصية الرئيسة هي شخصية الشاعر والأستاذ الجامعي، وكذلك الشأن في رواية (سيدة المقام) حيث يقوم الروائي والأستاذ الجامعي المختص في الفنون الكلاسيكية بالدور الرئيس أيضا، وهذا يجعلنا نقول إن هذه الروايات هي " رواية مثقف، في زمن عنيف صنع أزمة جعلت هذا المثقف يعاني مسألة الوجود في واقع فقد الاستقرار والأمن " (22) وقد استطاع الكتاب أن يمنحوا هذه الأعمال الكثير من الغنى والحركة ويضفوا عليها أبعادا درامية واضحة.

والسؤال المطروح هنا هو كيف تعاملت الشخصية المثقفة مع العنف ؟وهل استطاعت التأثير في الواقع سلبا أو إيجابا ؟

والحق أن شخصية المثقف " نموذج الانسان المتفتح والعقلانية في التفكير والحوار الإنساني الخصب البعيد عن عصبية الرأي وأحادية الموقف. وقد اختار الروائي الطاهر وطار شخصية الشاعر وذلك كون الشاعر أكثر إحساسا وشعورا ووعيا بالأمور من الإنسان العادي وقد تجلى ذلك واضحا في البدايات الأولى من الرواية وقد شبهه الكاتب بالمفكر والمناضل والمثقف الهندي (غاندي) " (23)، وقد كان لهذه الشخصية " دور رئيس في محاولة معالجة الواقع، وتغيير الأحداث. لقد حملت راية الدفاع عن الحق والحرية، ومواجهة الظلم والإرهاب كما فعل بطل رواية الشمعة والدهاليز ، وإذا عدنا إلى الرواية نجدها في الفصل الأول تتناول الثورة التحريرية ومقاومة البطل / الشاعر للاستعمار، وهو لايزال شابا يافعا، ثم بعد الاستقلال يتصل الشاعر بالمثقفين اليساريين،

فيتبنى الفكر الاشتراكي، ومع مطلع التسعينيات يتفاجأ الشاعر ببروز ظاهرة المعارضة الاسلامية التي أخذت تجيش الجماهير وتنظم المسيرات والتجمعات الشعبية لشباب الحركة الاسلامية ضد النظام وتحتل الشوارع والساحات للمطالبة بالحرية وتغيير النظام الحاكم الذي يتهمونه بالخروج عن مبادئ الدين الاسلامي، يقول الشاعر: " هؤلاء جماهير كادحة، وسواء أكانت على خطأ أو صواب هل يجوز لمثقف ثوري مثلي، وكرس حياته لخدمة الجماهير، والدفاع عن قضاياها أن يقف ضدهم؟ ماذا يفعلون؟ بصدد ماذا هم الآن؟ " (24) . هذه الأسئلة تحير الشاعر، وتجعله يسعى إلى تحليل هذه الظاهرة ومعرفة كنهها " لكن هذا النهر لابد من الاستحمام فيه، وها أنذا أحد أفراد هذا الشعب تمكن من المعرفة والاطلاع، ويقال عنه مثقف، ها أنذا على حافة النهر، إما أن أنزل مع النازلين، و إما أن أظل متفرجا إلى أن يقذفوني بالحجارة " (25) ، وعلى الرغم من اختلاف الشاعر مع هذه الجماعات في الرؤية ومنهج التغيير إلا أنه يتعاطف معهم، وهذا يجعل بطل الرواية بطلا إيجابيا يحاور الآخر المختلف ويحاول التأثير فيه . لقد تحول الشاعر بسبب العنف " إلى شخصية إشكالية، تساءل الآخر عما إذا كان التغيير كمطلب أساسا مبررا للعنف، وأمام تزايد العنف تضاعف إحساسه بالمساهمة في الحفاظ على الوطن والإنسان، والتعبير عن وجهة نظره .. وينظر للعنف كزمن طارئ، إن لم يكن وليد الساعة ... وما ينبغي التوقف عنده هو أن إيجابية الشاعر بدأت نتيجة احتكاكه بالناس من خلال محاضراته، وحديثه معهم في الشارع، والتعاطي مع الآخر الختلف كما فعل مع عمار بن ياسر " (26)، ولكن محاولاته في إقناع الشباب بالعدول عن نهج العنف تنتهي بالفشل، بل إنهم يقررون إسكات صوته بالاغتيال، فيحاكم ويقتل من قبل المتطرفين. يقول الشاعر " ليقتلوني، لينجزوا ما حاولت إنجازه قبل أن ألتقي بها " (27).

2 ــ شخصية الإرهابي : من خلال قراءتنا للعديد من روايات المأساة الوطنية يظهر لنا جليا احتفاء هذه الأعمال برسم شخصية الإرهابي، وهو في أغلب الروايات شخص ملتح يرتدي لباسا أفغانيا مثلما نجد في رواية سيدة المقام، وقد أطلق عليهم واسيني الأعرج اسم (حراس النوايا) وهو " ينتشرون في المدينة مثل رمال رياح الجنوب الساخنة. تعرفين أنهم لا يأتون إلا عندما تخسر المدينة سحرها ... صحرها بنو كلبون ويجهز عليها الآن حراس النوايا. القبعة الأفغانية و نعالةبومنتلوالقشابية والمعطف

الأمريكي من فوق ... نشتمهم من بعيد، فنغير المعابر والطرقات .رائحة عطورهم القاسية والعنيفة تسبقهم. عطر يشبه في قوته العطر الذي يسكب على جثث الأموات " (28)، وسنحاول التعرف على الشخصية الإرهابية، ونكشف عن صورتها في الخطاب الروائي .

من خلال المقاطع السابقة نرى أن الكتاب اعتمدوا في تصوير هذه الشخصية على طريقتين :

1ــ طريقة الوصف المادي الذي يركز على المظاهر الحسية كاللباس، وعلامات الوجه، والرائحة الحادة ونحو ذلك " هكذا نزعوا سراويلهم وارتدوا الجلابيب، وأطلقوا اللحى، واستسلموا لسرداب من سرداب الماضي يمتصهم " (29)

2 ــ طريقة التحليل النفسي التي تعري ما يعانيه هؤلاء الناس من عقد نفسية، وتناقضات صارخة في شخصياتهم انعكست في سلوكاتهم العنيفة " من صفاتهم، أنهم يقرأون في عينيك ما تفكر به، ولا يهم إن كان صحيحا أو غير صحيح. اللهم أنهم فكرورا أنك على خطأ، فيجب أن تكون على خطأ بدون ثرثرة، عندما يكفرونك وعادة يفعلون ذلك عندما يختلفون معك، وعليك أن تقبل، لأن أي نقاش سيقودك إلى تعميق الأزمة، الحاكم لا يناقش، الحاكم ينفذ أمره، ثم تقبل يده البيضاء السخية، ويطلب غفرانها " (30) من هنا مارست هذه الجماعات عنفها على الناس، وفرضت وصايتها عليهم، يترصدون حركاتهم وسكناتهم، ويتدخلون حتى في خصوصياتهم . كل هذا بسبب التطرف، وهذا ما كشفت عنه هذه الروايات التي ترى أن " العنف نتيجة للتطرف المتصاعد بأشكال مثلتها نماذج لشخصيات تمارس عنفا، يبدأ فكرة تكبر شيئا فشيئا، ثم تتحول إلى تعصب يتخذ له مظهرا في اللحى والكحل والقميص بالنسبة للمتطرف الديني، بينما يتجلى تطرف المتطرف المعاكس في الفكر والسلوك واللباس بالنسبة للمرأة المثقفة التي تتحدى المجتمع، وتخرج شبه عارية، تشرب الخمر وتدخن السجائر، وتمارس الجنس باسم الحرية لتعلن عن الشذوذ في مقابل التطرف " (31). إذن نحن أمام شكلين للتطرف، التطرف الديني والتطرف الاستئصالي، وهما يقعان على طرفي نقيض يعمل كل منهما على إلغاء الآخر ونفيه، وهذا يكشف لنا خطابين متعارضين في الظاهر، ولكنهما مشتركين في التطرف، فالبنية العميقة لذهنية الطرف الآخر/ الاستئصالي المناهض للإرهاب تكشف عن تطرف

من نوع آخر، وعنف من نوع آخر، و إذن فإن العنف في الجزائر لم يكن يتمثل فقط في العنف الجسدي الذي تقوم به الجماعات المسلحة، وإنما هناك عنف آخر يمارسه الكاتب يمكن أن أطلق عليه اسم العنف الرمزي، وهو يتجلى من خلال اللغة، ومن خلال الخطاب الروائي، فقد جعل واسيني بطلة روايته (مريم) راقصة باليه، وهنا نتساءل ما مدى واقعية هذه الشخصية ؟ و كم راقصة باليه توجد في المجتمع الجزائري ؟ وعليه فإن تركيز الكاتب على هذه الشخصية باعتبارها نموذجا لضحايا العنف في الجزائر يبعد الرواية عن الواقعية، مقدما لنا شخصية تائهة مضطربة تشعر بالاغتراب داخل مجتمعها، بل إنها تسعى إلى التمرد على قيمه الدينية والأخلاقية " وبذلك يكون النص قد خلق ... شخصية متطرفة، أراد من خلالها انتقاد تطرف ديني، لكنه وهو يفعل ذلك شارك إلى جانب عنف السلطة في انتاج التطرف الديني " (32) من خلال هذا العنف الرمزي الذي تقوم به شخصيات الرواية وتحديدا شخصية مريم راقصة الباليه وصديقها الأستاذ الجامعي . يقول الشاعر العربي :

فقاتل الجسم مقتول بفعلته وقاتل الروح لا يدري به أحد

ختاما نحسب أن الرواية الجزائرية المعاصرة في التسعينيات قد وفقت إلى حد كبير في احتواء أزمة العنف والإرهاب، والتعبير عن هواجسها من خلال هاذين العملين اللذين شكلا مدونة هذا البحث علما أن هناك أعمال أخرى كثيرة لم يتسع المجال لقراءتها، ولكننا نحسب أن هذين العملين استطاعا أن يرسما ملامح المأساة الوطنية برؤية عميقة، حيث كشفت الروايتان عن وعي خاص بأن الإرهاب والعنف في الجزائر هو نتيجة لأسباب متعددة تاريخية وسياسية واجتماعية وثقافية، كما تعددت أشكال هذا العنف والتطرف : فهناك التطرف الديني، والتطرف الاستئصالي، وهما يقعان على طرفي نقيض يعمل كل منهما على إلغاء الآخر ونفيه .

أما على مستوى البناء الفني فقد عبرت المدونة عن المأساة الوطنية بأدوات فنية متميزة تجاوزت النقل السطحي للأحداث خاصة على مستوى الشخصيات، حيث اتسمت بأنها نماذج فنية دالة على ما في الواقع من تناقضات .

أما المكان فقد وفق الكاتبان إلى شحنه بمختلف الدلالات التي تعبر عن اغتراب الشخصية عن واقعها بسبب الظروف المعقدة التي عاشتها والتي أفقدتها توازنها النفسي، فنشأ لديها هذا الشعور بالاغتراب في المدينة والبيت، ويتعرض البيت لتحول في الدلالة حيث يفقد دلالته السابقة (رمز للأمن والحماية) ويصبح رمزا للقتل والدمار ، وفقدان الأمن والحماية، وفي مكان كهذا تضيع الشخصية وتفقد إحساسها المألوف بالمكان .

الهوامش:

(1) ينظر عبد الله شطاح، رواية تحت المجهر...الرواية الجزائرية التسعينية .. كتابة المحنة أم محنة الكتابة، جريدة الحوار (16 _ 12 _ 2009)

(2) ينظر حوار مع الباحثة الكويتية سعاد العنزي، موقع النور للدراسات، http://www.alnoor.se

(3) مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، دمشق 2000 ، ص 9

(4) عبد الناصر مباركية، الصراع بين الحداثة والتقليد في رواية الشمعة والدهاليز للطاهر وطار، كتاب الملتقى الثالث عبد الحميد بن هدوقة ، وزارة الثقافة والاتصال الجزائر 2000 ، ص 241

(5) ينظر الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز

(6) آمنة بلعلى، المتخيل في الرواية الجزائرية، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو- الجزائر 2006 ، ص 78 .

(7) مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر، ص 100 .

(8) واسيني الأعرج، سيدة المقام، دار الفضاء الحر،الجزائر 2001 ، ص 213 .

(9) مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر، ص 101،102

(10) واسيني الأعرج، سيدة المقام، ص 280 .

(11) الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص 24 .

(12) غاستونباشلار، جماليات المكان، تر. غالب هلسا، المؤسسة الجامعية لدار النشر والتوزيع، بيروت ط3 ،1987، ص 31 .

(13) الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص 26 .

(14) الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، منشورات التبيين، الجاحظية الجزائر 1995، ص 189.

(15) الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص 61.

(16) واسيني الأعرج، سيدة المقام، ص 223

(17) المصدر نفسه، 228 .

(18) الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص 31.

(19) المرجع نفسه، ص 61 .

(20) حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 3،2000، ص 51 .

(21) آمنة بلعلى، المتخيل في الرواية الجزائرية، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر2006، ص 171.

(22) الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص 121.

(23) عبد الناصر مباركية، الصراع بين الحداثة والتقليد في رواية الشمعة والدهاليز، أعمال ملتقى عبد الحميد بن هدوقة، برج بوعريريج. الجزائر 2000، ص 246 .

(24) الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، ص 18 .

(25) المصدر نفسه، ص 179 .

(26) الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص 146 .

(27) الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، ص 204 .

(28) واسيني الأعرج، سيدة المقام، ص 11 .

(29) الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، ص 18 .

(30) المصدر نفسه، ص 220

(31) الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص 242

(32) المرجع نفسه، ص 241، 242 .